-4-

علاقة إيران بلبنان وحزب الله

تعود العلاقة الإيرانية اللبنانية إلى الأزمنة القديمة حينما حكمت إمبراطورية الأخمينيين الفارسية شاطئ فينيقيا بين عامي ٥٣٩ ق م إلى ٣٣٢ ق م(١). وحينما قهر الإسكندر الأكبر الإمبراطورية الفارسية أصبحت لبنان جزءا من المملكة السلوقية الهلنستية(٢)، وفي القرن الأول قبل الميلاد أصبحت لبنان جزءا من إقليم سوريا الروماني. وفي عام ٦١٤ ميلادي، استولى الحكام الساسانيون على القدس. وفي القرن السابع الميلادي، فتح العرب لبنان وغدت تحت سيطرة المسلمين. كانت الجماعات الشيعية الإثنا عشرية قد سكنت منطقة جبل عامِل جنوبي لبنان وسهل البقاع منذ القرن التاسع الميلادي، وأثناء فترة حكم الصليبيين في سوريا، ظهر الدروز المسلمون في أجزاء شتى من سوريا بما فيها جبل لبنان في الجنوب. زادت العلاقة التاريخية بين إيران والجماعات اللبنانية بدرجة لافتة في القرن السادس عشر حينما دعا الصفويون علماء الشيعة اللبنانيين إلى تعميق جذور المذهب الشيعي في إيران.

---

(١) الأخمينيون سلالة فارسية أسسها قورش (القرن ٧ ق. م). أشهر ملوكها قورش الكبير وقمبيز، وداريوس وأحشويرش. امتدت إمبراطوريتهم إلى بلاد اليونان وفينيقيا ومصر. انقرضت بموت داريوس ٣ بعد أن قهره الإسكندر ٣٣٠ ق. م. تشهد على حضارتهم الرفيعة آثار برسيوليس وشوش (الترجمة عن : معجم المُنجد في الأعلام).

(٢) أسسها سلوقس الأول من قواد الإسكندر. ملكت ٣١٢- ٦٤ ق. م. امتدت من الهندوس إلى المتوسط.

طوال ذلك التاريخ المعقد حدثت الصراعات، والتناغمات والتحالفات بين الجماعات المختلفة بشكل خاص. انتشرت التحالفات العائلية على أساس الدين. وكما يرى أسامة مقدسي، فالطائفية ك «معرفة حديثة» هي من صنع الهيمنة الاستعمارية الأوروبية من خلال الإمبراطورية العثمانية. مثلا، اعترف الموارنة والدروز بالقوى الأوروبية حماة لطوائفهم بدلا من حكام لبنان المحليين. عمّقَ هذا عملية الهوية الطائفية السياسية.

قامت دولة لبنان الحالية عام ١٩٢٠ حينما استغل الفرنسيون عصبة الأمم واقتطعوا جزءا من سوريا ليقيموا «لبنان الكبير» وُجدت الحدود الحالية لدولة لبنان القومية وفقا لقرار عصبة الأمم هذا، وشملت منطقة جبل لبنان العثمانية ذات الغالبية المسيحية (الموطن الأصلي للموارنة)

ومعها المناطق المجاورة بما فى هذا سهل البقاع والجنوب.

فيما بين عامى ١٩٢٠ و١٩٧٥، هيمن الموارنة على الدولة اللبنانية وسياستها، وحدّدوا هوية لبنان وفقا لمصالحهم الثقافية والطبقية. شاركت النخب السنية أيضا فى الشئون السياسية. ووضع تشكيل «الميثاق الوطنى» الأسس لنظام سياسى طائفى ضَمَن تمثيلاً منخفضاً للشيعة. قُسِّم مجلس الوزراء بالتساوى بين الأعضاء الموارنة والسنة، وخُصِص للشيعة ١٠ من مقاعد البرلمان البالغ عددها ٥٥ مقعداً.

حصلت لبنان على استقلالها عام ١٩٤٣، ومنذ آنذاك ظل رئيس الجمهورية مارونياً، ورئيس الوزراء سُنياً، أما منصب رئيس البرلمان الذى لا يكاد يكون له سلطة، فكان من نصيب الشيعة، هذا على الرغم من أن

الطائفة الشيعية تمثل نسبة أكبر من السكان. (كما سنرى، غيّر ظهور حزب الله كحزب سياسى موازين القوة هذه). أفاد الموارنة، والسنة الحضريون من هذه البنية الاجتماعية السياسية، فيما ظل سكان الجنوب، وغالبيتهم من الشيعة، بدون مستشفيات أو مدارس أو أنظمة للرى. لكن فى عام ١٩٥٨، فى عهد الرئيس شهاب، بُنيت بعض الطرق والمدارس فى الجنوب وتم إدخال المحاصيل التى تُغِل النقود لزراعتها فى المناطق الريفية. أيضا وفرت الهيئات العسكرية والمدنية بعض الوظائف للشيعة. شجع هذا هجرتهم إلى جنوب بيروت، بيد أن الفقر والبطالة ظلا السمة الغالبة وعُرِفت هذه الضاحية باسم «حزام البؤس» حينما كان أفراد الطائفة الشيعية والمجموعات الفلسطينية (غالبيتهم من السنة) يعملون أُجراء باليومية، ويعيشون فى فقر مدقع مستبعدين تماما عن بقية المجتمع. أما الإقطاعيون الشيعة فكانوا يدعمون أفراد طائفتهم شفاهيا فقط لكنهم كانوا يحمون مصالحهم المادية ومصالح طبقتهم، وهاجروا إلى أوربا والولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية وغرب إفريقيا وإلى دول أخرى. شكل غالبية الشيعة «طبقة طائفية». إذ كانوا أكثر الفقراء فقرا. عاظم الاحتلال الإسرائيلى لجنوب لبنان من الوضع التعليمى والوظيفى والاقتصادى المتردى للمجموعات الشيعية، وشكّل سكان الأحياء القذرة فى الضاحية الجنوبية «حزام البؤس» أكثر القطاعات حرمانا فى المجتمع اللبنانى. كان كثير من الشيعة قبل ذلك، فى الخمسينيات والستينيات قد أصبحوا أعضاءً فى الأحزاب الناصرية مثل حزب البعث، والحزب السورى الاجتماعى القومى، والحزب الشيوعى اللبنانى، وغيرها من الأحزاب القومية العربية واليسارية. وفيما كانوا يعيشون فى فقر ويعانون التهميش الاجتماعى السياسى، تم تسييسهم وردْكَلتهم» بتأثير

من دعوات القومية العربية والأيديولوجيات والتنظيمات الاشتراكية والشيوعية. بعد «سبتمبر الأسود» عام ١٩٧٠، حينما سحق الملك حسين منظمة التحرير الفلسطينية فى الأردن، هرب كثير من الفلسطينيين إلى لبنان، وانتقل كثير منهم، بعد حرب عام ١٩٧٣ إلى الجنوب اللبنانى. أدى عدم التنظيم المفرط بين مقاتلى منظمة التحرير فى الأحياء الشيعية إلى اقتطاع الأراضى والمزارع من الشيعة لإقامة مخيمات للاجئين الفلسطينيين مما أدى إلى حدوث توترات بين الفلسطينيين والشيعة. بيد أن الشيعة، مثل آخرين من الشعب اللبنانى، انضموا إلى منظمة التحرير والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين للتصدى لاجتياحات إسرائيل للبنان التى دعمها الغرب. أيضا كان تعاون الشيعة مع تلك المنظمات إشارة إلى معارضتهم لفساد رجال الدين الشيعة وتخلفهم والذين كانوا يساندون الطبقة الإقطاعية الشيعية.

منذ عام ١٩٤٨، قامت عدة منظمات خيرية شيعية فى لبنان. وفى عام ١٩٥٩ ذهب السيد الإمام موسى الصدر رجل الدين الإيرانى الذى كان له روابط عائلية لبنانية، إلى لبنان ليحل محل زعيم دينى شيعى بمدينة صور فى جنوب لبنان. أقام بمساعدة عدد من المجموعات الدينية فى إيران، عدة مؤسسات خيرية فى الجنوب اللبنانى لمساعدة المجموعات الشيعية. قدّم لهم أيديولوجيا بديلة عن أيديولوجيا الأحزاب اليسارية والقومية وحاول بناء هوية إسلامية جمعية قابلة للحياة. استخدم مراسم عاشوراء لإقامة التكافل وتطوير الوعى السياسى. فى عام ١٩٦٣، ترسخت مكانة الصدر فى بيروت وصور، وفى عام ١٩٧٨ أنشأ محمد حسين فضل الله جمعية المبرة الخيرية التى توسعت فيما بعد لتضم مستشفيات ومدارس، ودوراً للأيتام ومراكز ثقافية وكان التمويل يأتيها

من أثرياء الشيعة فى المنطقة وفى غرب إفريقيا من أموال الخُمس والزكاة، ومن مناسبات جمع الاكتتابات والتبرعات - التى مازال يجمع فيها ملايين الدولارات كل عام.

فى عام ١٩٦٩، تعاون الصدر وفضل الله لإنشاء المجلس الشيعى الأعلى، وفى عام ١٩٧٤ قادا إضرابا عاما وطالبا بمساعدة المقتلعين من الجنوب اللبنانى نتيجة للهجمات الإسرائيلية. أنشأ عام ١٩٧٤ حركة المحرومين وطالبا بإصلاح النظام اللبنانى. حينما اندلعت الحرب الأهلية اللبنانية فى عام ١٩٧٥، انبثق عن الحركة جناح عسكرى هو حركة أمل للمقاومة وأنشئت معسكرات تدرّب فيها نشطاء شيعة فى العراق وإيران والسعودية وغيرها.

فى عام ١٩٧٥، أُنزِل بالشيعة أكبر عدد من الضحايا والمصابين على أيدى الميليشيات المارونية. وفى عام ١٩٧٦ اقتُلِع ١٠٠٠٠٠ شيعى وأعيد توطينهم فى الجنوب حيث الكثافة السكانية المفرطة - الأمر الذى أدى إلى انتشار الراديكالية بينهم. فى عام ١٩٧٨ اجتاحت إسرائيل لبنان وقُتِل وهُجِّر مئات الآلاف من السكان. أدت هذه الحرب، ومعها الحرب الأهلية إلى إضعاف قدرة اليسار والقوميين على الدفاع عن حقوق الفقراء فى تلك المنطقة.

وفى ظل تلك الأوضاع، توسعت أنشطة حركة أمل، وظهر الدين كعامل تعبئة بين الشيعة اللبنانيين. نظر الإسلاميون، وبخاصة الشيعة اللبنانيون، إلى ثورة ١٩٧٩ الإيرانية بصفتها رواية مضادة قوية للحداثة الغربية.

قبل ثورة ١٩٧٩، كانت الجماعات الشيعية فى الشرق الأوسط تربطهم نزعات قوية برجال الدين فى إيران. تحولت بعد الثورة علاقات هذه

المجموعات إلى علاقات مع الدولة فى إيران، من ثم كانت الثورة مناسَبَة مهمة للشيعة فى أنحاء العالم، وبخاصة للشيعة فى لبنان. وكما توضح الأكاديمية منى حرب:

«إيران مهمة للشيعة لأن ثورتها جعلتهم مهمين فى التاريخ. لا يتعلق الأمر كله بالعلاقة الدينية بل بالعلاقة السياسية. مع إضفاء الصبغة المؤسسية على الحركة الشيعية الإسلامية اللبنانية فى الثمانينيات، ضمّت كتب التاريخ قصص أبطال شيعيين وأبطال جبل عامل، لم نكن نتحدث عنهم مطلقا قبل ذلك لأن الشيعة كانوا قطاعاً اجتماعيا مهمشا ومقموعا».

نظرت المجموعات الشيعية فى جميع أنحاء العالم الإسلامى إلى الثورة الإيرانية على أنها ثورة كل المسلمين ورأها كثير من السنة فى الشرق الأوسط هى ونتائجها على أنها ظاهرة إيجابية.

ظهور حزب الله:

كان ظهور حزب الله نتيجة مباشرة لاجتياح إسرائيل للبنان عامى ١٩٧٨ و١٩٨٢ ومساندة الغرب لذلك الاجتياح. كان الاجتياحان وحشيين ومدمرين إلى أقصى درجة، وغير مشروعين وفقا للجمعية العامة للأمم المتحدة. كان اجتياح عام ١٩٨٢ أعظم هَوْلاً وفداحة بكثير من اجتياح عام ١٩٧٨، قامت أثناءه إسرائيل، بمنهجية ودونما تمييز، بقصف البلدات والمدن والقرى والمدارس والمستشفيات ووضعت بيروت تحت الحصار لمدة ثلاثة أشهر. كما كانت مسئولة مباشرة عن مذابح صابرا وشاتيلا. وإضافة إلى العدد الهائل من القتلى والمصابين، انتقل عدد كبير من اللاجئين مرة أخرى إلى «حزام البؤس».

أدت الاجتياحات إلى تشظية الحركات الشيوعية والفلسطينية

المعارضة لسياسات الولايات المتحدة وإسرائيل. أضعف غياب أيديولوجيات منطقية مقررة داخليا، وغياب التنظيم العسكرى والسياسى المطلوب من أجل كسب دعم القواعد الجماهيرية، أضعف منظمة التحرير واليسار العلمانى والقوميين. هذا علاوة على أن التدخلات العسكرية والسياسية الإسرائيلية التى دعمها الغرب (أثناء حصار بيروت، ذهبت نصف موازنة المساعدات الخارجية للولايات المتحدة كاملة إلى إسرائيل) كانت لها دور كبير فى إضعاف تلك التنظيمات. أدى اجتياح عام ١٩٨٢ إلى تدمير منظمة التحرير الفلسطينية، التى أُجبرت فيما بعد فى عام ١٩٨٨ على الاعتراف بدولة إسرائيل. حينما غادرت منظمة التحرير لبنان عام ١٩٨٢ إلى منفاها فى تونس، ازداد وضع اللاجئين سوءا لأن المنظمة كانت توفر لهم التعليم والعمل والرعاية الصحية.

فى يونيو ١٩٨٢، انضم قائد أمل، نبيه برى، إلى لجنة الإنقاذ الوطنى التى شكلها إلياس سركيس رئيس جمهورية لبنان. كان هدف اللجنة التى كانت تضم أيضا بشير الجميل، هو أن تحل ميلشيا القوات اللبنانية المارونية الموالية لإسرائيل ومعها الجيش اللبنانى محل منظمة التحرير فى غرب بيروت. تعاون برى مع المؤسسة المارونية وتصدى لمنظمة التحرير فى جنوب لبنان. لم يتقبل غالبية اللبنانيين والفلسطينيين هذا الموقف منه. انشق عدد من مسئولى حركة أمل وكونوا حزب الله.

فى سبتمبر ١٩٨٢، قُتِل بشير الجميل، رئيس حزب الكتائب ورئيس الجمهورية المنتخب فى حادث تفجير. انتقم الكتائبيون المسيحيون لموته بمذابح صابرا وشاتيلا. وبإشراف من الجيش الإسرائيلى ومن وزير الدفاع آرييل شارون، هجمت ميلشيات الكتائب اللبنانية على معسكرى صابرا وشاتيلا، واغتصبوا، وشوهوا، وقتلوا آلاف اللاجئين الفلسطينيين

المدنيين. لم يكن ضحايا صابرا وشاتيلا هم الفلسطينيين فقط، بل أيضا اللاجئين الشيعة الذين شكلوا ربع عدد القتلى.

وبعد ذلك، ومن عام ١٩٨٥ إلى عام ١٩٨٨، هاجمت حركة أمل معسكر الرشيدية فى الجنوب وحاصرته، ومعه صابرا وشاتيلا فى برج البراجنة حيث كان السكان قد تعرضوا للمذابح على يد الإسرائيليين والكتائبيين كما ذكرنا من قبل. أدى هذا إلى زواء حركة أمل وتزايد شعبية حزب الله الذى كان قد أثبت التزامه بدعم الفلسطينيين وليس فقط بتمكين الشيعة فى لبنان.

أدى نضال حزب الله المستدام ضد إسرائيل فيما بين عامى ١٩٨٢، و١٩٨٥ إلى انسحاب إسرائيل من بيروت. مهد هذا الطريق لمقاتلى حزب الله، الذى ساعدته إيران، أن يصبحوا أبطالاً فى أنحاء المنطقة منذ الثمانينيات وحتى الآن. لقيت استراتيجيته ونضاله ضد إسرائيل شعبية من مناصرى حماس فى الأراضى الفلسطينية. فى عام ١٩٨٤ وقعت تصادمات بين أمل وحزب الله وأعلن حزب الله نفسه حركة مقاومة إسلامية. فى عام ١٩٨٧، وقعت تصادمات بين مقاتلى حزب الله والقوات السورية فى بيروت الغربية حينما رفضوا تسليم قواعدهم للقوات السورية. فى عام ١٩٨٨، وأثناء القتال على السيادة فى الجنوب بين أمل (مدعومة من سوريا) وحزب الله طردت سوريا حزب الله من الجنوب، وفى وقت متأخر من ذاك العام أعاد حزب الله شن هجومه على أمل، لكن إيران تدخلت، وأنهت القتال بين القوتين الشيعيتين وسلم حزب الله موقعه للقوات السورية التى سمحت له بمواصلة عملياته العسكرية ضد إسرائيل من الجنوب. أوضح هذا سلطة سوريا فى لبنان هذا على الرغم من أن حزب الله هيمن على المقاومة فى الجنوب. أجبر هذا أيضا حزب

الله وسوريا على التوصل إلى تفاهم سُمِح بمقتضاه أن يُبقى حزب الله على سلاحه فى الجنوب فقط وذلك لمواصلة مقاومته ضد إسرائيل الأمر الذى رأت فيه سوريا مصلحة لها. اعترف اتفاق الطائف بعلاقة سوريا المهيمنة مع لبنان، ورأت إيران أيضا فى وضع سوريا المسيطر فى لبنان مصلحة لها. بين عامى ١٩٨٥ و١٩٨٨، شنت حركة أمل حربا ضارية ضد اللاجئين الفلسطينيين، وفى عام ١٩٨٨ و١٩٨٩ تصادم حزب الله وأمل مرة أخرى من أجل التحكم السياسى فى الجنوب. قوضت هذه الصراعات حضور أمل السياسى فى الضواحى الشيعية المزدحمة، وفى النهاية، انتهت الصدامات بين / الشيعية من خلال اتفاق بين سوريا وإيران فى عام ١٩٨٩.

أوضح تعاون حزب الله مع دولة سوريا العلمانية موقفهما المشترك ضد إسرائيل وأيضا براجماتية حزب الله. علاوة على ذلك، لم تمنع علمانية منظمة التحرير حزب الله من إدانة «حرب أمل ضد معسكرات اللاجئين» ولا من تدخله إلى جانب اللاجئين الفلسطينيين السنة. أيضا، تعاطف حزب الله وأيد أنشطة اليسار الدولى، والمجموعات الماركسية العلمانية، وأُعجب بحفاظ كاسترو على استقلال كوبا فى مواجهة الولايات المتحدة. كما دعم حزب الله نلسون مانديللا وأنشطته ضد نظام الآبارتايد فى جنوب إفريقيا، ويدعم حاليا كفاح حماس والإخوان المسلمين (السنة) فى فلسطين ومصر والأردن. تسببت هذه السياسة فى شعبية حزب الله فى الشرق الأوسط، وله أنصاره فى سوريا وفلسطين والأردن والعراق، ووفقا للإحصائيات تعتبر قناته الفضائية «المنار» أكثر القنوات الفضائية العربية شعبية بعد «الجزيرة».

اشتراك حزب الله فى الانتخابات والحياة السياسية:

تُلقى الولايات المتحدة وإسرائيل على حزب الله مسئولية تفجير سفارة

الولايات المتحدة وثكنات المارينز ومقر القوات الفرنسية الرئيسى فى بيروت عام ١٩٨٢. وكذلك اختطاف طائرة TWA إلى بيروت والهجمات ضد أهداف إسرائيلية فى الأرجنتين، لكن حزب الله ينكر أى رباط له مع منظمة الجهاد الإسلامى المسئولة عن تفجيرات الثمانينيات فى بيروت والتى نجم عنها مقتل عدة مئات، ويزعم أنه تدخل فقط لدى المنظمة للإفراج عن رهائن كانت تحتفظ بهم(١).

منذ التسعينيات عمل حزب الله باتساق ومنهجية على كسب تأييد مختلف الطوائف اللبنانية من خلال مشاركته فى الانتخابات واندماجه فى النظام السياسى اللبنانى. أتاح هذا للمنظمة أن تنتقل من حركة مقاومة محدودة إلى اكتساب وضع بصفتها حركة اجتماعية لها تأثير شعبى قاعدى فى انتخابات عام ١٩٩٢. فاز حزب الله باثنى عشر مقعدا فى البرلمان تنازل عن أربعة منها لحلفائه من غير الشيعة. وفى انتخابات عام ١٩٩٦ فاز بتسعة مقاعد. كان حزب الله قد تمكن من الفوز بمقاعده بدون انضمامه إلى قائمة حركة أمل، لكنه فى انتخابات ١٩٩٦، وافق على طلب سوريا الانضمام إلى قائمة أمل حيث رأت أن بقاءه السياسى يعتمد على وحدة الطائفة الشيعية.

بعد انتخابات عام ١٩٩٢، قرر حزب الله إقامة حوار مع الطائفة المسيحية فيما أصبح يعرف بالانفتاح. قرر السيد عباس الموسوى، ثانى أمين عام للحزب، أن يقود الحزب إلى المشاركة فى النظام السياسى العلمانى الديمقراطى، لكن القوات الإسرائيلية اغتالته (هو وأسرته) فى

(١) من المعروف عن حزب الله أنه لا ينكر مسئوليته عن أى أعمال قام بها فعلا، وقد أثبتت الأحداث ذلك، وأنه لا يقوم بأية عمليات خارج لبنان، لكن الولايات المتحدة وإسرائيل تريدان أن تنسبا إليه هجمات تبرران بها إدراجه على قائمة المنظمات الإرهابية حيث إن مقاومته الاحتلال الإسرائيلى لا تبرر وصفه بالإرهاب وفق الأعراف والمواثيق الدولية. (الترجمة)

فبراير عام ١٩٩٢، وتولى المنصب بعده السيد حسن نصر الله الذى سار على نفس النهج وبادر بالتعاون مع المجموعات المسيحية بأسلوب لافت.

شنت إسرائيل هجمات على الجنوب فى عامى ١٩٩٣ و١٩٩٦ مما أجبر السلطات اللبنانية على اتخاذ إجراءات ضد حزب الله. عقد حزب الله، بعد هذه الهجمات عدة اجتماعات مع البطريرك الماروني و«الإخوة الموارنة». فى عام ٢٠٠١، تشكلت لجنة «الحوار الإسلامى المسيحى» لمناقشة مزيد من التعاون. أيضا، عقد الطلبة من حزب الله لقاءات مع نظرائهم المسيحيين. أكسبت تلك اللقاءات حزب الله دعما انتخابيا من قبل المجموعات المسيحية وأيضا أفراد الطائفة الدرزية ومجموعات سنية. فاز حزب الله، فى انتخابات عام ٢٠٠٠ المحلية بنسبة ٦١٪ من بلديات الجنوب، و١٠٠٪ من مقاعد المجالس البلدية فى ضواحى بيروت. فى عام ٢٠٠٠، اندحرت القوات الإسرائيلية من الجنوب وفر الجيش الإسرائيلى نتيجة لهجمات المقاومة، وبذلك حقق حزب الله هدفا عسكريا وسياسيا مهما بتحرير الجنوب، على الرغم من أن إسرائيل مازالت تحتل مزارع شبعا. شعر المسيحيون بالارتياح والاطمئنان إلى نوايا حزب الله حينما لم تتجدد الأعمال العدائية.

فى فبراير عام ٢٠٠٥ تم اغتيال رئيس وزراء لبنان السابق رفيق الحريرى بتفجير سيارته والسيارات المواكبة له فى بيروت. أدى هذا إلى اندلاع التظاهرات والتظاهرات المضادة فى ميدان الشهداء ببيروت. شجب ائتلاف ١٤ آذار وما سمّى بثورة الأرز الذى كان يتكون من الأحزاب المعادية لسوريا بقيادة سعد الحريرى ومؤيديه (من المسيحيين والدروز والسنة بشكل أساسى) شجبوا هيمنة سوريا على لبنان، ونادوا

بتنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ١٥٥٩ الذى طالب بانسحاب سوريا من لبنان وتجريد حزب الله من سلاحه [بل واتهموا سوريا وأعوانها فى الجهات الأمنية باغتيال الحريرى]. نظم تحالف ٨ آذار المكون من حركة أمل وحزب الله والحركة الوطنية الحرة التابعة لميشيل عون والحزب الاشتراكى السورى القومى والحزب الشيوعى اللبنانى، نظموا تظاهرات مؤيدة لسوريا. انسحبت القوات السورية من لبنان فى ١٧ مارس، لكن حزب الله رفض نزع سلاحه على أساس أنه قوة مقاومة مهمتها الدفاع عن الأرض اللبنانية ضد أى هجوم إسرائيلى محتمل.

حينما عاد ميشيل عون من المنفى فى مايو ٢٠٠٥، وجد أن سعد الحريرى، زعيم الطائفة السنية، ووليد جنبلاط، زعيم الدروز، كانا قد شكلا تحالفا. وكقائد للموارنة، كان عون بحاجة إلى حليف انتخابى جديد وخاصة وأن غالبية الطبقة الوسطى المسيحية، وفقراء المسيحيين كانوا قد سئموا الانقسامات الطائفية. من ثم، تحالفت حركته، أى حركة الإصلاح والتغيير، مع حزب الله [ووقّعا ما يعرف بوثيقة التفاهم]. كان هذا التحالف مهما لعون نظرا لمكانة حزب الله كتنظيم مسلح، برهن على قدرته على الجمع بين مختلف المجموعات السياسية والطائفية، وبسبب دوره كحركة مقاومة فاعلة تصدت لإسرائيل. وفى هذا السياق، كان حزب الله أكثر قبولا لدى جماهير المسيحيين القاعدية من أى تنظيم آخر. أيضا، كان هناك التقسيم الريفى/ الحضرى التاريخى. فعلى حين أن الشيعة والموارنة ظلوا مجموعات ريفية فى غالبيتها، فإن المجموعات السنية تنتمى إلى المدن، ونظرا لأن عدد السكان الموارنة آخذ فى التقلص فيما يزداد عدد الشيعة، كان الموارنة بحاجة إلى حليف محلى قوى. بيد أن هذا لا يُترجم على أنه نهاية للطائفية بين أعوان حزب الله وعون، لكنه

يعنى أن المواقف من إسرائيل والقضايا الطبقية تهم تلك المجموعات وأن حزب الله يعنى بتلك المتطلبات؛ فهو يتصدى لإسرائيل كحركة مقاومة، وأيضا، يعمل على إرضاء الاحتياجات المادية للمجموعات المتنوعة من مختلف الطوائف من خلال توفير الموارد. بالنسبة للبنانيين كثيرين، يبدو تركيز حزب الله على القهر والحرمان والاستغلال وأنه يقوم على أساس من التحليل الطبقى أكثر من التحليل الدينى، ويلقى هذا النهج استحسانا شعبيا واسعا لدى المجموعات المسلمة والمسيحية.

فى يونيو ٢٠٠٦، تم تعيين حليف أسرة الحريرى اللصيق، فؤاد السنيورة، رئيسا للوزراء. لم تَرُق سياسته التى عمدت إلى تشكيل مليشيا مسلحة من شركات الأمن الخاصة لحزب الله، كما أدت سياسته الاقتصادية النيوليبرالية إلى تضخم كبير وانخفاض الأجور الواقعية مما زاد من استياء غالبية اللبنانيين من الحكومة. فى نفس الوقت كان تحالف حزب الله مع أمل وأتباع عون الذين حصلوا على اثنين وأربعين مقعدا برلمانيا قد منحهم صوتا قويا فى البرلمان. استمر نبيه برى فى منصبه رئيسا للبرلمان، وشارك حزب الله فى مجلس الوزراء بوزيرين.

منذ آنذاك غدا تركيز حزب الله على القومية اللبنانية التى يحددها على أنها مزيج بين الهوية اللبنانية (المسيحية والمسلمة) والهوية الإسلامية (السنة والشيعة والدروز) والهوية العربية (جميع اللبنانيين). فى لبنان، يؤدى هذا المزج بين أيديولوجيات العروبة واللبننة إلى وجود شكل خاص من القومية تجمع بين الهويات الجمعية التاريخية وأيضا الخصوصيات الاجتماعية السياسية للبنان. ظل وجود مجموعات طائفية مختلفة والتدخلات الأجنبية المستدامة يعنى أن يتماهى الأفراد مع زعماء طوائفهم ويعتمدون عليهم فى الزواج والحصول على وظائف والالتحاق بالمدارس

وإتاحة المستشفيات لمرضاهم. وفى هذا السياق لا ترعى الدولة مواطنيها بالمعنى المطلوب.

وكما تبين منى حرب:

«مفهوم القومية فى لبنان متنازع عليه. لم يحدث وأن كان ثمة إجماع على كيفية سرد تاريخ لبنان. تُركّز كل مجموعة على أسلوبها الخاص في النظر إلى القومية والوطنية. تحاول كل مجموعة بدءا ممن يعتنقون التوجهات القومية الفينيقية والمارونية وإلى دعاة القومية العربية، أن تزعم أن سردها هو الأكثر شرعية، وجميعها على غير استعداد لتقبل تنوع تاريخنا والاحتفاء بحقيقة أن لنا مثل هذا التاريخ الثرى. تنتج المجموعات المختلفة تاريخها الخاص بها بدلا من الربط بين كل أوجه تاريخ لبنان. أدى ذلك إلى خلق هويات انعزالية. من ثم، يرحب الكثيرون بالتحالف بين حزب الله وجزء من الطائفة المسيحية ويرونه خطوة إيجابية فى ربط الطوائف المختلفة وفرصة للهروب من هويات المعازل الحالية والأوضاع المستَقْطبة التى هى نتاج فترة طويلة من التاريخ [الكلونيالى]».

توفير الموارد من خلال حزب الله:

أدت الحرب الأهلية اللبنانية (١٩٧٥ - ١٩٩٠) والاجتياحات الإسرائيلية إلى إنهاك البلد وخرابه ونجم عنها مئات آلاف القتلى والمصابين جسديا ونفسيا والمقتلعين والمهجرين. وفى تلك الأثناء، فشلت الحكومات الطائفية الفاسدة فى التعاطى مع الركود الاقتصادى وأزمة النازحين والفجوة الماضية فى الاتساع بين الأثرياء والفقراء. تبنى الملياردير رفيق الحريرى صاحب المشاريع السنى رؤية للبنان على أنها مجتمع حضرى علمانى من أفراد الطبقة العليا والمتوسطة. لعب دورا مهما فى إعادة بناء منطقة وسط بيروت - بشكل أساسى من خلال نزع

الملكيات من ملاكها الأصليين - وحوّلها من مركز تجارى تقليدى إلى حى أعمال بالأسلوب الغربى ارتفعت فيه البنايات الشاهقة التى تحوى شققا باهظة الثمن ظلت خالية فى معظمها لعدم قدرة الكثيرين على شرائها. أى أنها لم تكن تعنى، ومازالت لا تعنى، شيئا لغالبية الشعب الذى يحتاج إلى إسكان ومياه جارية ورعاية صحية وتعليم أولاده. ظل سهل البقاع والجنوب اللبنانى، مناطق همشت تاريخيا وحرمت من الخدمات العامة والمياه النقية والرعاية الصحية المناسبة والإسكان والعمل لفترة من الزمن. كان حزب الله أول من وفر الخدمات الاجتماعية لمن حاربوا ضد الإسرائيليين وعائلاتهم. أقام مؤسسات رعاية اجتماعية فاعلة ليخرج الشيعة من حالة التهميش. وتدريجيا، دعمت شبكته الاجتماعية الواسعة المجموعات الأخرى المحرومة. لم يكن مصدر تمويل هذه الخدمات هو الحكومة بل من أموال الزكاة والتبرعات. كانت مساعدات إيران المالية أيضا على قدر من الأهمية. فى أواخر الثمانينيات، كانت خدمات توصيل المياه والكهرباء إلى تلك المناطق قد قُطعت تماما، على حين كانت المياه تتدفق على أحياء وسط بيروت. ساعدت إيران على حفر الآبار وتوصيل المياه. منذ التسعينيات اضطلع حزب الله بمسئولية توفير الرعاية والخدمات الصحية والصرف الصحى لنصف مليون شخص من النازحين الذين كانوا يعانون من تراكم النفايات. استمرت هذه الخدمة لمدة خمس سنوات قبل أن تستطيع الهيئة الحكومية المسئولة الوقوف على أقدامها مرة أخرى. بدأ حزب الله فى الاضطلاع بوظيفة الدولة واستطاع توفير الموارد وتنظيمها بحيث وفر المدارس والمياه النقية والكهرباء لمختلف المجموعات السكانية. مثلا، قام بتطوير الزراعة وتنميتها فى سهل البقاع والجنوب بدرجة تحوز

الإعجاب. أيضا، وفرت المستشفيات والخدمات الصحية التى أقامها العمل لعدد كبير من العاملين فى مجال الصحة.

أفادت أيضا القطاعات الأكثر فقرا من المسيحيين والسنة والدروز فى بعض المناطق من الموارد التى وفرها حزب الله. كانت الدولة وزعماء طوائفهم قد فشلوا فى رعايتهم مادياً وتوفير الحماية لهم ضد الهجمات الإسرائيلية المستدامة. ولهذه الأسباب يرتبط هؤلاء الأهالى، وبخاصة المسيحيون منهم بحزب الله ويصوتون له فى الانتخابات. لا ينظرون إليه بصفته تنظيما شيعيا، بل يتماهون معه لأنه يتحدث باسمهم ويعمل فى مصالحهم. يرون أن لدى حزب الله حسا بالالتزام لم يروه أبدا فى أية مجموعة أخرى. بيد أن الفقراء ليسوا وحدهم من يتماهون مع حزب الله، فكما أوضحت لى عالمة الاجتماع Judith Harik إذ قالت:

«قمت فى عام ٢٠٠٣ بإجراء مسح ووجدت أنه حتى قطاعات الطبقات العليا من الطوائف المختلفة تصوِّت لصالح حزب الله لأنه التنظيم الوحيد الذى يتصدى لإسرائيل ويوفر لهم الخدمات».

طوال سنوات الصراع العنيف غيرت حركة الأشخاص الذين هربوا من الاجتياحات الإسرائيلية وقصفها للجنوب من التركيبة الطائفية للمنطقة حيث كان الموارنة، فى السابق، يشكلون غالبية السكان هناك وكان الشيعة أقلية لكن الشيعة أصبحوا يشكلون الغالبية بنهاية التسعينيات. أدت عوامل عديدة إلى وجود لاعبين متعددين فى الحياة السياسية اللبنانية. من بين تلك العوامل: عدم المساواة الاجتماعية والسياسية؛ الصراعات الدينية الطائفية؛ الالتباس حول الأسلوب الذى ينبغى أن تدار به الدولة، وحول سبل عمل الأقليات المختلفة؛ ما ينبغى أن يحدد إتاحة مؤسسات الدولة ومواردها، وكيف ينبغى تجميع وظائف

الدولة المختلفة ومحاصصتها. لدى بداية الحرب الأهلية كان اللاعبون الرئيسيون هم الموارنة والفلسطينيين. واليوم أضحى اللاعبون الرئيسيون هم الشيعة والموارنة والسنة، وانزوى الفلسطينيون. كان الشيعة هم أكثر الفقراء فقرا، وكانوا فى غالبيتهم أُميين. لكنهم أصبحوا الآن متعلمين يشاركون فى شئون مجتمعهم وحياة البلد السياسية. تقول چين سعيد مقدسى، الكاتبة الفلسطينية:

«ترقّت المناطق والأحياء الفقيرة. أهل تلك المناطق ليسوا أثرياء، لكنهم أفضل حالا بكثير مما كانوا عليه فى السبعينيات والثمانينيات. وبعد حزب الله هو المسئول عن هذا التغيير ببنائه الطرق والمدارس والمستشفيات. ولأول مرة فى تاريخ لبنان يبلى الشيعة بلاء حسنا من حيث التعليم والإسكان والصحة وتوفير العمل. أصبحوا مرئيين. يماثل هذا الأيام التى كانت فيها منظمة التحرير نشطة فى لبنان وكان كثير من الفلسطينيين متعلمين، منهم الأطباء والمحامون والمهندسون وكانوا جزءا من نخبة المجتمع الفكرية والاجتماعية».

علاقة إيران بحزب الله:

منذ الخمسينيات وحتى ثورة ١٩٧٩ فى إيران، دعم الشاه وحكومته لبنان التى كان يهيمن عليها الموارنة الذين همشوا المسلمين والشيعة بخاصة. فى السبعينيات، كان عدد من النشطاء المعارضين للشاه، وبخاصة أعضاء حركة تحرير إيران يعيشون فى لبنان. كانت هذه العلاقة ذات دور حاسم فى تشكيل حزب الله. فى عام ١٩٨٢، قامت علاقة جديدة بين سوريا فى ظل حافظ الأسد وآية الله الخمينى فى إيران. كانت سوريا هى البلد العربى الوحيد الذى دعم إيران فى حربه مع العراق. كان هدف هذا التحالف (بين الأسد والخمينى) هو تقويض

هيمنة أمريكا على الشرق الأوسط. بعثت إيران بألف وخمسمائة من الحرس الثورى إلى سهل البقاع بتأييد من سوريا التى أتاحت لهم حدودها مباشرة. قدم الحرس الثورى التدريب والتنظيم والتمويل إلى حزب الله، واستخدم حافظ الأسد سيطرته على سهل البقاع للتعاطى مع الترتيبات السياسية. وطوال التسعينيات ترسخت العلاقات السورية الإيرانية وقويت، وازدادت قوة ورسوخا عام ٢٠٠٢، حينما تبنى چورچ دبليو. بوش مفهوم «محور الشر» واستمرت الولايات المتحدة فى عدائها لسوريا وإيران. وترسخت أيضا علاقات طهران ودمشق الاقتصادية والسياسية والثقافية، وقامت إيران ببناء مصافٍ للنفط والغاز فى سوريا، ومعا أقاما صناعة للسيارات (٨٠٪ إيرانية و٢٠٪ سورية) وبدأتا تتعاونان معا فى الشأن اللبنانى.

وخلافا عما يشاع عن أن حزب الله هو امتداد لإيران فإنه فى واقع الأمر تنظيم هجين استمد إلهامه من الثورة الإيرانية لكنه لبنانى مستقل. فى البداية، تلقى حزب الله التمويل من إيران لكن هذا التمويل تراجع منذ التسعينيات، ومنذ عام ٢٠٠٤، تراوح الدعم المالى الذى يتلقاه حزب الله من إيران بين ٦٠ مليون و٨٠ مليون دولار سنويا. يتلقى حزب الله تمويلات أكبر كثيرا من الشيعة فى لبنان والكويت والسعودية ومن ملايين اللبنانيين الذين يعيشون بالخارج. إن مثال صلاح عز الدين المضارب الشيعى الذى كان يمول حزب الله لافت. فى ٢٠٠٩، أُعلن إفلاسه نتيجة لاستثماراته فى سوق المال النيوليبرالى. باعد حزب الله نفسه عنه وقلل من شأن دعمه المالى له. ثمة كثير من أثرياء رجال ونساء الأعمال فى المنطقة، الذين يدعمون حزب الله مالياً كما كان يفعل صلاح عز الدين.

أدى الإلزام الدينى والشعور بالاعتزاز بالشيعة إلى الإسهام فى تمويل حزب الله من خلال أموال الأخماس والزكاة، وإقامة المناسبات لجمع التبرعات للمنظمات الخيرية المرتبطة بحزب الله. يقوم بهذه الأعمال مئات من المتطوعين بينهم أعداد كبيرة من النساء كجزء من الجهاد ضد الفقر من خلال توزيع الموارد. تشكل هذه التنظيمات وغيرها شبكة كلية متكاملة توفر الخدمات لأعداد كبيرة من المستخدمين ممن هم بحاجة إلى الخدمات الاجتماعية والاقتصادية علاوة على دعمها للمقاومة المسلحة.

من ثم، تلعب داعمات حزب الله من النساء دورا مهما لجمع التمويلات للمنظمة. ظلت الناشطات الحقوقيات فى لبنان، وطوال عقود،، يركزن كفاحهن على معارضة الطائفية بصفتها مصدر البطريركية وعدم المساواة بين الجنسين. يرين أن قوانين الأسرة، كقضية طائفية، استغلها الرجال من مختلف الطوائف الدينية. أيضا، اشتركن فى لجان للأحياء السكنية للحفاظ على القانون والنظام وذلك لأن عقودا من الحرب والصراع قد دمرت النسيج الاجتماعى لمجتمعهن. فى سياق ما قبل عام ١٩٧٠، كانت نساء الشيعة هن الأقل تنظيما سياسياً فى البلد. بيد أنه، واكب زيادة التحجب بينهن زيادة فى مشاركتهن فى الحياة العامة. تعتبر السيدة فاطمة ابنة الرسول، والسيدة زينب، التى من خلال مشاركتها فى الحرب ضد الأمويين ضمنت استمرارية المذهب الشيعى، تُعتبران نموذجا تقتدى به تلك النساء فى مشاركتهن فى الحياة السياسية الدينية والاجتماعية لجماعتهن. ويرين فى زينب بخاصة رمزا للتراحم والالتزام والشجاعة ويقتدين بها فى التبرع بوقتهن وجهدهن للمشاركة النشطة فى رفاه مجموعاتهن حيث يلعب جمع التمويلات والتبرعات دورا مهما. بيد أنه، وبرغم إسهامهن المهم، لا تحتل النساء مناصب قيادية أو يشاركن فى صنع القرارات بالمستويات السياسية العليا فى حزب الله.

وإلى جانب جمع الأخماس والزكاة وإسهام النساء فى مراكمة التمويلات، فإن ثمة مؤسستين لهما دور مهم فى استقلال حزب الله المالى منذ عام ١٩٨٤؛ وهما مؤسسة القرض الحسن ومؤسسة وعد. القرض الحسن مشروع ائتمانى مصرفى مصغر يعطى القروض لمن هم بحاجة إليها. لديهم صندوق قروض بملايين الدولارات يموله الشيعة فى لبنان والمنطقة، وكما بينت لى Judith Harik فإن:

«القرض يُمنح لأى فرد يستحقه، ولكى تستحق القرض عليك إقناعهم بأنك ستستخدمه لتحسين حياتك. ظل النظام المصرفى اللبنانى، تاريخيا مرتبطا بالهويات الطائفية، يهيمن عليه السنة والدروز والموارنة. لم تكن للشيعة فرصة أبدا مثل غيرهم من الطوائف. ومنذ إنشاء مشروع القرض الحسن، مضى الشيعة يضعون أموالهم فى تلك المؤسسة.. بالطبع فإن أفراد الطوائف الأخرى مرحب بهم وبإمكانهم إيداع أموالهم هناك. أيضا يتم إيداع الممتلكات الثمينة مثل الذهب هناك، والنساء يودعن مصوغاتهن فى ذلك المصرف. أثناء قصف الجنوب، تمكن الشيعة من نقل أموالهم ومعادنهم الثمينة إلى مكان آمن».

أسهمت وعد أيضا بصفتها مؤسسة عقارية كبيرة، إلى حد كبير، فى استقلال حزب الله المالى، والازدهار النسبى لمؤيديه. بعد تدمير إسرائيل لمنطقة الجنوب اللبنانى، حصل حزب الله على تمويل من الدولة ومتبرعين آخرين لإعادة إنشاء ٢٣٠ مبنى مؤلفا من ٥٤٠٠ شقة، و٣٠٠٠ محل تجارى و٢٥٠٠ مأوى. فى هذا الصدد، تقول Judith Harik:

«عرض حزب الله على أصحاب الأراضى والبنايات إعادة إنشاء أملاكهم وتعميرها دونما مقابل من خلال مؤسسة جهاد البناء. اصطف الناس لكى يوقعوا العقود لأن هذا كان يعنى أن مساكنهم القديمة التى

دمرها الإسرائيليون سيعاد إنشاؤها أو إصلاحها وتجديدها وسيكون باستطاعتهم سكنى شقق حديثة البناء».

أتاح هذان المشروعان لحزب الله الاعتماد على موارده وقدراته الخاصة. أيضا، فقد أتاحت تلك المؤسسات لعدد كبير من الشيعة الذين لم يكن لديهم أموال، أو بنوك يتعاملون معها أو ملكيات عقارية الفرصة لتسهيل الحصول على كل هذا. أيضا، قوض التزام حزب الله بالوحدة الإسلامية والعروبة والقومية اللبنانية المزاعم القائلة بأنه تنظيم إيرانى يعمل بالوكالة. يقول البعض إن القيمين على الحزب يؤمنون بولاية الفقيه رغم أن الحزب يعمل وفقا للدستور اللبنانى ويؤمن بهذا المبدأ من منطلق دينى عقائدى ولا تتعارض علاقته بإيران مع هويته الوطنية اللبنانية. وفى هذا الصدد قال السيد حسن نصر الله إنه وكما لا يتعارض الارتباط بالمسيحية أو الشيوعية أو أى نظام عقائدى آخر مع هوية الفرد اللبنانية فإن علاقة حزب الله بإيران واعتقاده فى مبدأ ولاية الفقيه لا تتناقض مع هويته اللبنانية أو وطنيته.

وفيما كان كثير من الشيعة اللبنانيين من أتباع آية الله الخمينى حتى وفاته عام ١٩٨٩، كان آخرون من أتباع آية الله الخوى حتى وفاته عام ١٩٩٢، لكن فى السنوات الأخيرة اتبع غالبية الشيعة اللبنانيين [الراحل] آية الله فضل الله أو السيستانى. ظل فضل الله (وحتى وفاته مؤخراً) أحد نواب الخوى فى لبنان منذ عام ١٩٧٦، كما أنه أبرز المجتهدين فى لبنان اليوم وله صيت دولى وأتباع فى أنحاء العالم الشيعى. يتمتع فضل الله بشعبية كبيرة بين النساء وغير المسلمين لأنه يرى أنه بالإمكان تأويل المسائل الدينية، وبخاصة تلك المتعلقة بالجندر والعلوم بما يتوافق مع الزمان والمكان. وعلى الرغم من أن حزب الله، رسميا، يتبع الخامنئى

كزعيم روحى إلا أن لأفراده الحرية فى أن يتبعوا من يشاءون، وكثير من أعضاء الحزب يتبعون فضل الله أو السيستانى فى شئونهم الدينية وقد تحدى كلاهما مبدأ ولاية الفقيه من منطلق أن وجود مرجعية دينية وسياسية وحيدة، وهذا هو جوهر ولاية الفقيه، مستحيل حتى عودة الإمام الثانى عشر المختفى. وفى واقع الأمر، فقد أنكر كل من فضل الله و حزب الله وجود أية رابطة تنظيمية بينهما وترجع شعبية فضل الله إلى استقلاله المؤسسى عن أى تنظيم.

يساور كثيراً من اللبنانيين، بل وآخرين كثيرين فى المنطقة، القلق من أن حزب الله، حينما يمسك بالسلطة، سيسعى إلى إقامة دولة إسلامية على غرار الدولة الإيرانية. وبناء على هذه المزاعم، رد حزب الله بأنه يعتقد فى وجود هوية إسلامية تتخطى الارتباطات القومية، وفى هذا السياق فلا يمكن إقامة دولة إسلامية فى لبنان دون تأييد ذلك من غالبية الشعب.

وبما أن اللبنانيين يتشكلون من طوائف عدة، فإن مثل هذا التأييد غير وارد. قضى فضل الله وقتا طويلا، وبذل جهدا شاقا طوال سنين عديدة، لتعزيز التفاهم والتعاون الإسلامى المسيحى كأسلوب لتوسيع مساحة العمل الإسلامى فى لبنان بدلا من اقتناص المسلمين للفرص أو استيلائهم على السلطة. يعتقد أنه لا يمكن فرض الأسلمة على الطائفة المسيحية كبيرة العدد أو على المجموعات العلمانية التى لابد وأن ترفضها، من ثم، لا ينبغى فرض أسلمة المجتمع والدولة على طوائف لبنان وجماعاتها المتنوعة الدينامية.

وفى هذا السياق، فإن العلاقة الدينية/ السياسية بين حزب الله و إيران، و التقسيم الشيعى/ السنى المذهبى قضية تتأثر بها مدركات الناس عن حزب الله وإيران. يرى الكثيرون إيران بصفتها بلداً إسلاميا محافظاً وفى الواقع، فإن هذه النظرة قد تؤثر فى دور حزب الله بلبنان.

لا تعرف شعوب المنطقة الكثير عن واقع إيران، حيث إن العرب يتحدثون العربية ويتحدث الإيرانيون الفارسية، ومن ثم، لا يوجد سوى القليل من الاتصال بين الطرفين، بيد أن مواقف إسرائيل والولايات المتحدة وممارساتهما في المنطقة تقرِّب بين الطرفين وباستطاعة مثقفيهما التواصل من خلال الإنجليزية. وفقا للأونروا، ثمة ٤٠٠٠٠٠ لاجئ فلسطيني يعيشون في لبنان، ومنذ عام ١٩٤٨، أُجبر مئات الآلاف من الفلسطينيين على مغادرة وطنهم والالتجاء إلى لبنان حيث يعيشون في فقر وبؤس في المناطق الجنوبية وسط الشيعة. وعلى الرغم من أنهم واجهوا التحيز من بعض المجموعات الشيعية في الماضي، إلا أن المجموعتين لقيتا كثيرا من المعاناة نتيجة لعدائهما لإسرائيل وإهمال الدولة اللبنانية الكامل لهما. من ثم، عمل مصيرهما المشترك على التقريب بينهما رغم اختلافهما المذهبي. يؤيد الكثيرون من اللاجئين الفلسطينيين في لبنان إيران بصفتها قوة تتصدى لسياسة الصراعات والحروب الأمريكية، ومشروعها لإقامة «الشرق الأوسط الكبير أو الجديد». بيد أن الكثيرين ينتابهم أيضا القلق من دور إيران في لبنان. أوضح ساري حنفي ذلك بالقول:

«يؤيد الكثيرون إيران، لكنهم يدركون تعقيدات دور إيران بالمنطقة وينقدون دورها في العراق ثمة مخاوف من جانب السنة أيضا من انتشار المذهب الشيعي في المنطقة. ينضوي الموقف على تناقض أيضا؛ ففيما يؤيد الكثيرون موقف إيران من القضية الفلسطينية، إلا أنهم لا يحبون لها أن تتخطى الخطوط الحمراء بحيث تُضعف المذهب السني والثقافة السنية. ويخشى البعض من مسألة الحجاب وقضايا الجندر المحافظة».

في السنوات الأخيرة، وبخاصة منذ اغتيال الحريري، مضى بعض الإعلام اللبناني في محاولات لإثارة المشاعر المعادية لإيران وحزب الله.

وسط النيران، لكنهم بتآلفهم يستطيعون الخروج منها».

اكتسب المثل العربى القديم «أنا وأخويا على ابن عمى وأنا وابن عمى على الغريب» شعبية كبيرة أثناء حرب ٢٠٠٦، أى أنه رغم اختلافهم فإن السنة والشيعة جميعهم معادون إسرائيل. بالطبع، فإن ثمة معارضة قوية فى جميع المناطق لحزب الله من مجموعات سنية ومسيحية وشيعية. لكن هذا العداء لحزب الله يقوم على أساس طبقى وطائفى، إلا أن شعبيته بصفته القوة الوحيدة التى تتصدى لإسرائيل، وأيضا بسبب توفيره الموارد للأهالى، توضح أنه رغم تنوع المجتمع اللبنانى وانقساماته إلا أن باستطاعته أن يتوحد ضد العدو المشترك. يدعم هذا رأى مقدسى القائل بأن الثقافة الطائفية التى لها جذورها فى الكلونيالية الغربية بنية مصطنعة ومن ثم يمكن هدمها وإحلال الدولة والمجتمع المستقلّين محلها.

ومرة أخرى استهدفت إسرائيل فى تلك الحرب المدنيين والبنى الأساسية (الطرق، المطارات، الموانئ، الكبارى، المنازل، المصانع، المزارع، المياه والكهرباء، والغاز ومنشآت الصرف الصحى). قدرت الأضرار بمبلغ ٣,٨ مليار دولار، كما بلغ عدد المقتلعين والنازحين حوالى مليون شخص أى قرابة ربع العدد الكلى لسكان لبنان. تتذكر فاطمة إحدى الفتيات التى أجريتُ حوارا معها فى بيروت، اليوم الذى هاجمتهم فيه إسرائيل:

«فى اليوم الذى بدأت فيه الهجمات كنا نعد لحفلة زفاف. أخذنا أطفالنا وغادرنا منازلنا وهرولنا باتجاه الشرق، كنا ننظر خلفنا ونُبصر القنابل تتساقط على منازلنا. جرينا باتجاه البحر حيث يعيش المسيحيون. ساعدونا وقدموا لنا الطعام والمأوى. بعد أيام، حينما عدنا إلى حينا لم نجد أثرا لمنازلنا. لم يسمح لنا بالاقتراب من منزلنا لأن صاروخا قد سقط فى وسطه. ظللنا بدون مسكن لمدة ستة أشهر. ثم أعادوا بناء منزلنا لكنهم لم يستطيعوا إزاحة الصاروخ خوفا أن ينفجر

ويدمر جزءا كبيرا من ضاحية بيروت الجنوبية. بنوا حوله سدا من الإسمنت بحيث لا يحدث ضررا كبيرا حال انفجاره. عدنا الآن إلى منزلنا، لكن ثمة صاروخ كبير فى وسطه ونأمل ألا ينفجر».

كان هدف إسرائيل تدمير حزب الله، لكن عملياتها أدت إلى عكس ما توقعته إسرائيل والولايات المتحدة تماما: خرج حزب الله من الحرب أكثر قوة. برهنت منظمات الإغاثة الدولية والدولة اللبنانية على عدم فاعليتها، من ثم ظهرت إيران وسوريا كداعمين وحيدين لضحايا تلك الحرب(١). حالما انتهت الحرب، بدأ حزب الله جهود إعادة الإعمار من خلال مؤسسة جهاد البناء للإنشاءات وبمساعدة مئات المتطوعين من المعماريين والمهندسين. ساعدت إيران فى إعادة بناء الطرق السريعة وأمدت الأحياء الفقيرة ببعض المرافق. بيد أن أكثر المساعدات المالية أتت إلى حزب الله ومازالت تأتيه من داعميه فى المنطقة بمن فيهم كثير من المغتربين اللبنانيين من أفراد الطبقة الوسطى.

وصفت لى الأكاديمية لاله خليل كيف أن أدوار حزب الله، التى يؤديها بالتوازى مع بعضها، شديدة الفاعلية:

«من جهة، فإن حزب الله تنظيم عسكرى ينظم نفسه كآلية دفاع ضد إسرائيل. وهذا جزء مهم من هويته كحركة مقاومة. ومن ناحية أخرى، فإنه، وكقوة تقليدية، يقوم بتعبئة أهالى منطقته وحشد قواهم. فى الأيام الأولى لحرب ٢٠٠٦، قاتل الأهالى العاديون القوات الإسرائيلية أكثر مما قاتلها جنود حرب العصابات. هؤلاء الأهالى منَظّمون لأقصى الدرجات وتقنيون قادرون على تنظيم المجتمع».

بعيد الحرب مباشرة، قام حزب الله بمساعدة إيران بإعادة بناء القرى والكبارى التى دمرها الإسرائيليون تقول منى حرب:

---

(١) تغفل الكاتبة مساهمة دولة قطر الكبيرة فى دعم الضحايا. (الترجمة)

إلا أن، محمود، أحد الناشطين الفلسطينيين فى بيروت، يرى أن الفلسطينيين فى لبنان يتماهون مع إيران من منطلقات سياسية لا مذهبية:

«بالنسبة لهم فإن إيران هى الدولة الوحيدة التى تتصدى لإسرائيل وجرائمها ضد الفلسطينيين. حينما يرون أن إيران تساعد فى إعادة بناء كباريهم وطرقهم ومنتزهاتهم بعد أعمال القصف الإسرائيلية فإن ذلك يولد لديهم المشاعر الطيبة تجاه إيران. يشعرون أن الحركة القومية الفلسطينية والعربية قد تراجعت نسبيا. لقد تم نسيان اللاجئين الفلسطينيين فى محادثات ما يسمى بعملية السلام، أُسقطوا تماما، وغدت إيران هى الدولة الوحيدة التى تهتم بقضية الفلسطينيين كشعب مقموع. تختلف آراء الناس حول ما إن كان لإيران أجندتها الخاصة بها وما إن كان موقفها مناصرا حقا للفلسطينيين. يقال إن لإيران أجندتها ولحزب الله أجندته وإن الجميع يمارسون لعبة الشطرنج. إن الشرق الأوسط أرض تدار عليها المعارك. تقوى إيران موقعها من خلال نصرتها للفلسطينيين. وتقوى أمريكا وضعها فى المنطقة بدعمها إسرائيل. ليس لدينا خيار وعلينا الانحياز لأحد الأطراف».

حروب إسرائيل فى لبنان تقوى وضع إيران:

على الرغم من حقيقة أن الانقسام السنى الشيعى هو حقيقة تاريخية وثقافية، وعلى الرغم من تضخيم الإعلام له، إلا أن حرب إسرائيل على لبنان عام ٢٠٠٦ قاربت بين المجموعتين وبين إيران بدرجة أكبر، كان مقاتلو حزب الله قد اختطفوا جنديين إسرائيليين ليبادلوهما بأسرى حزب الله لدى إسرائيل. بادرت إسرائيل بشن حرب شاملة على لبنان وقصفت المطار الدولى وطريق بيروت/ دمشق السريع، ثم واصلت تدميرها للجنوب اللبنانى وأنزلت بالسكان مستوى صادماً من المعاناة.

كانت إدارة بوش وحلفاؤها الأوروبيون، وبعد سياساتهم الكارثية فى أفغانستان والعراق، قد أملوا أن انتصار إسرائيل سيؤدى إلى قيام «الشرق الأوسط الجديد». ولهذا السبب، رفضت الولايات المتحدة وأوربا النداءات المتكررة لوقف إطلاق النار وذلك ليمنحوا إسرائيل الوقت الكافى لمعاقبة حزب الله [والقضاء عليه وعلى سلاحه]، ومعاقبة سوريا وإيران بشكل غير مباشر. لا غرو إذن أن اعتقدت غالبية شعوب المنطقة والداخل اللبنانى أن الولايات المتحدة مسئولة عن سياسة إسرائيل للعقاب الجماعى وجرائم الحرب التى ارتكبتها ضد الشعب اللبنانى. وعلى الرغم من أن مجلس الأمن أكد على عدم شرعية الحرب إلا أنه بتأجيله صدور قرار وقف إطلاق النار لمدة اثنين وثلاثين يوما فقد ضحى بالشعب اللبنانى فى سبيل مصالح الولايات المتحدة وإسرائيل. أدت مقاومة حزب الله لأعمال العنف الإسرائيلية إلى زيادة شعبيته فى المنطقة وتخطت الانقسامات المذهبية. يرى محمد، وهو ناشط فلسطينى آخر التقيته فى بيروت أنه:

«أثناء حرب ٢٠٠٦ دعم فلسطينيون كثيرون حزب الله وساعدوا الشيعة الذين تعرضوا للهجمات. فتحوا بيوتهم للشيعة النازحين. لدىّ جيران مدقعو الفقر يملكون ثلاث حاشيات (مراتب) احتفظوا باثنتين منها وأعطوا الثالثة للنازحين الشيعة. قبل ٢٠٠٦، لم يحدث وأن دخل شيعة كثيرون إلى مخيمات اللاجئين، لكن الآن فإن ثمة صداقة بين المجموعتين. لم تكن الطوائف المسيحية تريد الفلسطينيين فى لبنان، أما الآن فأصبحوا يدركون تماما سبب وجود الفلسطينيين هناك، وسبب عدم استطاعتهم العودة إلى وطنهم. يدركون الآن أن عليهم دعم الفلسطينيين حتى يقاتلوا لاسترداد حقوقهم. وبأسلوب غريب، فقد أدت حرب ٢٠٠٦ إلى التقارب والتآلف بين المجموعات المختلفة، إذ يشعرون أنهم جميعا

«استعار حزب الله أساليب إدارة المدن وتخطيطها من إيران. كان تخطيط المدن وبناؤها سابقا يتبع النموذج الأوروبى، حيث كان رؤساء المدن يذهبون إلى أوربا ويستعيرون نماذجهم، أما الآن فتحاكى المدن فى لبنان نظيرتها فى إيران. أصبحت ثقافة بناء المدن على غرار النموذج الإيرانى ذات شعبية فى لبنان. ثمة لافتات فى الجنوب تشكر إيران على مساعدتها».

يدعم اللبنانيون حزب الله وإيران من منطلقات سياسية لا دينية. ينظر الناس إلى كم معاناتهم لسنوات عديدة نتيجة لهجمات إسرائيل التى يدعمها الغرب، فيما تدعم الأنظمة العربية الغرب أو تتخذ موقف المتفرج ولا يساندهم سوى حزب الله وإيران. وفى هذا السياق، صعد حزب الله كلاعب سياسى وعسكرى قوى، له روابط مع إيران. يرى ملايين الناس فى أنحاء المنطقة أن حكومات الأردن والسعودية ومصر بشجبها لحزب الله وإدانتها له أثناء الحرب قد خانت الشعب اللبنانى.

فيما بين ديسمبر ٢٠٠٦ ومايو ٢٠٠٨، حول أنصار حزب الله وحركة أمل والجنرال عون [وقوى المعارضة الأخرى] ميدان الشهداء بوسط بيروت إلى مدينة خيام اعتصموا بها مطالبين باستقالة الحكومة. لم تُجر الانتخابات الرئاسية فى موعدها عام ٢٠٠٧؛ واستقال وزراء الحكومة الشيعة، ولم يدعُ نبيه برى رئيس المجلس التشريعى البرلمان إلى الاجتماع. ونتيجة لذلك، لم تستطع الحكومة إصدار أية قرارات وتحولت إلى حكومة تصريف أعمال. فاقمت الأزمة السياسية الأزمة الاقتصادية. فى يناير ٢٠٠٧، دعت المعارضة إلى إضراب عام وطالبت بزيادة الأجور وتخفيض الأسعار وتحسين إمدادات المياه والكهرباء، إذ إن أكثر من ثلث السكان يعيشون تحت مستوى خط الفقر الرسمى. فى ١ مايو ٢٠٠٨، اندلعت المظاهرات التى نظمتها الاتحادات التجارية والعمّالية فى أنحاء

لبنان. كانت الاتحادات التجارية والعمالية قوية فى السبعينيات لكنها أُضعفت فى الثمانينيات نتيجة لسياسات الحكومة النيوليبرالية. تلك الاتحادات مستقلة عن جميع الجماعات الدينية. وعلى الرغم من أن حزب الله لم يبد معارضة لتلك السياسات النيوليبرالية إلا أنه يحظى بدعم شرائح السكان الفقيرة الناشطين فى تلك الاتحادات.

فى ٦ مايو، أعلنت الحكومة أن شبكة اتصالات حزب الله الداخلية غير قانونية وتعتبر تعديا على سيادة الدولة. يعمل نظام شبكة الاتصالات تلك على تنسيق المقاومة المسلحة فى مواجهة أى اجتياح إسرائيلى محتمل. هددت الحكومة بعرض القضية على مجلس الجامعة العربية والأمم المتحدة. أيضا، طالبت السلطات باستقالة وفيق شقير، وهو جنرال شيعى مسئول عن أمن مطار بيروت. عبر وليد جنبلاط، الذى كان مؤيدا للحكومة آنذاك، وزعيم الطائفة الدرزية، للإعلام عن مشاعر معادية لحزب الله ولإيران. وفى مواجهة كل هذا، سيطر مسلحون من حركة أمل، وحزب الله، والحركة الوطنية الحرة والحزب السورى القومى على ضاحية بيروت الغربية ذات الغالبية السنية. عطلوا الإعلام الموالى للحكومة وسدوا الطريق إلى المطار. نجم عن ذلك مواجهات مسلحة بينهم وبين ميلشيات تيار المستقبل التابع لسعد الحريرى.

وفى مؤتمر صحفى فى ذاك اليوم ألقى حسن نصر الله بالمسئولية على إسرائيل والولايات المتحدة لمحاولة خلق حرب أهلية جديدة فى لبنان بتصويرهم تلك التوترات على أنها توترات بين الشيعة والسنة. أكد على أن حزب الله يحاول تحاشى الانقسامات الطائفية لكنه لن يسلم سلاحه ولن يستخدمه ضد الشعب اللبنانى، لكنه سيستخدمه دفاعا عن نفسه. قال إن الإعلام الكوكبى يحاول شيطنة حزب الله بصفته مرتبطا بإيران لكنهم لا يذكرون أبدا الاعتداءات الإسرائيلية. أنفقوا، وعلى مدى عامين مئات ملايين الدولارات لتشويه صورة حزب الله لكنهم لم ينجحوا.

أضاف أن حزب الله دائما ما قال إن ثمة مشكلة سياسية فى لبنان ويجب حلها سياسياً عن طريق الحوار والاستفتاء. قال إن إسرائيل حاولت فى حرب ٢٠٠٦ تدمير شبكة اتصالات حزب الله ونزع سلاحه، لكنها لم تنجح، والآن تحاول الحكومة إكمال المهمة التى عجزت عنها إسرائيل.

وأكد أن الحزب لن يسمح للحكومة بنزع سلاحه أو تفكيك شبكة اتصالاته الداخلية، وأنهم يرفضون قرار مجلس الأمن الذى يقضى بنزع سلاحه وأن ذلك هو المجلس نفسه الذى فشل، وعلى مدى السنين، فى وقف العدوان الإسرائيلى المتكرر أو إدانته. وجد خطاب نصر الله أصداء إيجابية فى أنحاء العالم العربى وتماهت الغالبية مع أطروحاته. يعلم نصر الله مدى شعبية الحزب فى المنطقة، وفى خطابه، ركز على عدوان إسرائيل الذى لا يتوقف وسعى إلى كسب دعم الغالبية العربية فى تصديه لإسرائيل بأن أكد أن العدو هو إسرائيل بالنسبة للشيعة والسنة معا.

استمرت التصادمات بضعة أيام فى مختلف المناطق اللبنانية ونجم عنها ٨٠ قتيلا و٢٥٠ مصاب. لم يتدخل الجيش مباشرة [إذ إنه يمثل الوحدة الوطنية] حيث إن ثلث أفراده من الشيعة، ولدى عدد كبير من ضباطه روابط مع أعوان الجنرال عون. وفى واقع الأمر، فإن غالبية الجيش من الرتب المنخفضة، سواء كانوا شيعة أم سنة، هم من مؤيدى حزب الله. وفى ١٨ مايو، توسط أمير قطر وجامعة الدول العربية بين الحكومة والمعارضة فى الدوحة، وأنهوا بذلك ثمانية عشر شهرا من الطريق المسدود الذى كانت الأمور قد وصلت إليه. أُجبرت الحكومة على عمل التنازلات من بينها إصلاح القانون الانتخابى بحيث يعكس، واقعيا، التوازن الطائفى فى البلد. بالطبع، يرى كثيرون أن إصلاح القانون

الانتخابى وحده لا يمكن أن يوفر حلا حقيقيا للنظام الطائفى الذى يُدخل البلاد، من حين لآخر، فى أزمات سياسية. وافقت الأطراف المعنية على الدخول فى حوار لتعزيز سلطة الدولة و تحديد العلاقة بينها وبين حزب الله. رحبت إيران وسوريا بالاتفاق، ورأته السعودية والولايات المتحدة خطوة إيجابية ضرورية. وفى ٢٠٠٨، أصبح ميشيل سليمان، القائد المستقل السابق للجيش اللبنانى رئيسا للجمهورية، واحتفظ نبيه برى وفؤاد السنيورة بمنصبيهما فى رئاسة مجلس النواب ورئاسة الوزراء على التوالى.

وفى هذا الصراع، كما فى الحالات السابقة، أخطأت الحكومة اللبنانية التى تدعمها الولايات المتحدة وحلفاؤها فى المنطقة، تقدير شعبية حزب الله وحلفائه من حركة أمل وقطاعات من الطائفة المسيحية بزعامة الجنرال عون. وفى واقع الأمر، انتهى هذا الصراع بهزيمة كبرى لمخطط واشنطون وإسرائيل. وعلى الرغم من دعم الغرب والسعودية ومصر للحكومة اللبنانية فى مواجهة المعارضة، وبخاصة بسبب العلاقات الوثيقة بين السعودية والحريرى، فقد أرسل أوباما مبعوثه جورج ميتشل إلى المنطقة فى مهمة لإجراء مفاوضات سلام بين العرب وإسرائيل. وفى مارس ٢٠٠٩، ذكرت بريطانيا أنها تميز بين جناحى حزب الله السياسى والعسكرى وأعلنت استعدادها لإجراء حوار سياسى مع التنظيم. وكما ذكرت ريما علاّف، المتخصصة فى شئون الشرق الأوسط بتشاتام هاوس، المعهد الملكى للعلاقات الدولية بلندن، فليس باستطاعة الولايات المتحدة وبريطانيا تجاهل حزب الله الذى يمثل جزءا مهما من سكان لبنان.

فى يونيو ٢٠٠٩، فاز تحالف ١٤ آذار الحاكم بواحد وسبعين مقعدا من مقاعد البرلمان البالغ عددها ١٢٨ مقعد، فيما فاز تحالف ٨ آذار بسبعة وخمسين مقعداً. وعلى الرغم من خسارته. فقد فاز تحالف ٨ آذار

بمعدل ٥٥٪ من مجموع أصوات الناخبين، ودافع الجنرال عون عن تحالفه مع حزب الله بقوله إنه يساعد على استقرار لبنان وأن إسرائيل تمثل التهديد الرئيسى للبنان. ترى لاله خليلى أنه لو أن الانتخابات اللبنانية أجريت على أساس نظام صوت انتخابى لكل فرد لفاز تحالف ٨ آذار:

«لقد فازوا بنسبة ٥٥٪ من مجموع الأصوات. لكن النظام الانتخابى يقوم على أساس محاصصة أصوات المناطق على غرار الجمعيات أو الهيئات الناخبة التى تصوت لانتخاب رئيس الولايات المتحدة. يعنى هذا أنهم على الرغم من فوزهم بنسبة ٥٥٪ من مجموع الأصوات الفردية فلم يحصلوا على نسبة كافية من خلال نظام الدوائر الانتخابية كى يكون لهم غالبية برلمانية. بيد أنهم سيكونون أكثر فاعلية كقوة معارضة. لو أنهم فازوا لتحملوا مسئولية فساد النظام اللبنانى وطوائفيته مثلما تحملت حماس مسئولية فساد سلطة الحكم الفلسطينية».

وفيما أنه كان باستطاعة أعضاء البرلمان الواحد وسبعين من تحالف الحريرى تعيينه رئيسا للوزراء، إلا أنه مد يده لحزب الله والمعارضة فى تحالف ٨ آذار من أجل تشكيل حكومة وحدة وطنية. أيضا، قام حليفه وليد جنبلاط بتغيير موقفه وأعلن أنه ينبغى ضم حزب الله إلى الحكومة. فى أكتوبر ٢٠٠٩، رأى آية الله فضل الله أن لبنان و صلت إلى نقطة أصبحت معها على استعداد لتلقى أى أنباء من الولايات المتحدة عن السلام فى المنطقة. وفى نفس الوقت، دعا نصر الله إلى التقارب بين السعودية وإيران من أجل تجسير الانقسام الشيعى/ السنى وذلك لإطفاء نيران المذهبية والطوائفية.

أما من حيث العلاقات بين إيران وحزب الله، فتقدم المؤسسة السياسية الإيرانية مستويات مختلفة من الدعم للحزب. منذ ثورة ١٩٧٩،

تمتع حزب الله بعلاقات وثيقة مع قوات الأمن فى إيران، واستمرت هذه العلاقات طوال فترة حكومتى رافسنجانى وخاتمى الإصلاحيتين، وحكومة أحمدى نجاد المحافظة. يتميز نصر الله بحنكته السياسية ويدرك أن حزب الله بحاجة إلى دعم إيران سواء كان المحافظون أو الإصلاحيون هم من يمسكون بمقاليد الأمور. قام بتهنئة أحمدى نجاد عام ٢٠٠٩ حينما أُعلن فوزه فى الانتخابات، لكن حالما عُرِف أنه ثمة شك فى صحة تلك النتائج أعلن أنه، بغض النظر عمن يفوز فى الانتخابات، ستظل علاقات حزب الله بإيران وثيقة.

لتحالف الغرب والولايات المتحدة مع الأنظمة العربية المحافظة أهمية كبرى، وبخاصة بالنسبة للمصالح الأمريكية فى المنطقة. بيد أنه قد يُنظر إلى تحسن العلاقات بين إيران وحماس وحزب الله باهتمام متزايد. لقد تغيرت طبيعة الإسلام السياسى فى إيران، ولدى حزب الله فى لبنان وحماس فى فلسطين والإخوان المسلمين بمصر. ووفقا لأطروحتى فى هذا الكتاب، فإن ثمة مؤشرات واضحة على أن الحداثيين الإسلاميين فى إيران وفى أنحاء المنطقة على استعداد لتشكيل سياساتهم وفقا للسياسات الكوكبية، ولو حدث مثل هذا التغيير فى سياسة الولايات المتحدة الخارجية فسيكون له أثره على الشرق الأوسط فى مختلف الظروف والأحوال.